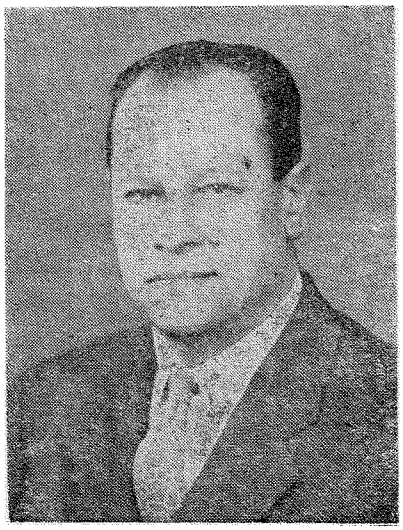

ريتا عوض

« أولاد حارتنا » بين الرؤيا والتعبير

« وحدث نفسه مرة اخرى فقال : لماذا لا تعنى بشؤونك الخاصة ، هكذا يقول المأمور ، ولي زوجة محبوبة ورزق موفور ، والحق ان الانسان قد يسعد بما هو زوج او موظف او أب او ابن لكنه مقضي عليه بالمتاعب او بالموت نفسه بما هو انسان ، وسواء اقضي عليه بالسجن هذه المرة ام اطلق سراحه فباب السجن الغليظ المتجهم هو ما يتراءى لعينيه في افق حياته . وعاد يتساءل : ماذا يدفعني في هذا السبيل الخطير الباهر ؟ الا انه الانسان الكامن في اعماقي ، الانسان الواعي لذاته المدرك لموقفه الانساني التاريخي العام ، وان ميزة الانسان على سائر المخلوقات هي انه يستطيع ان يقضي على نفسه بالموت بمحض اختياره ورضاه .(١) »

بهذه الكلمات التي يضعها نجيب محفوظ على لسان احمد ابراهيم شوكت في نهاية السكرية ، تبدا مرحلة جديدة من مراحل تطور الفن القصصي عند محفوظ : الانطلاق من مرحلة القصة الاجتماعية الى مرحلة القصة ذات الابعاد الميتافيزيقية ، حيث تتعدى هموم الانسان مشكلات حياته اليومية ، ويقف امام قدره الاكبر ، الموت ، ليبحث عن معنى الحياة . لكن نجيب محفوظ لا يتجاهل التجربة الاجتماعية في هذه المرحلة الجديدة بل يضيف اليها بعدا ميتافيزيقيا لم يظهر بوضوح في قصصه السابقة . فتغدو الخاصة الاساسية في هذه المرحلة هي الربط بين مأساة الوجود من ناحية وقضايا الانسان اليومية من ناحية اخرى . وقد وعى محفوظ اهمية هذا الارتباط حين قال :

« ان تفكيرنا في الحياة كوجود يجردها من كل شيء الا من الوجود والعدم . ولكن تفكيرنا فيها كمجتمع يرينا مآسي كثيرة مفتعلة من صنع الانسان ، كالجهل والفقر والاستعباد والعنف والوحشية الى آخره . وهذا يبرر تأكيدنا على مآسي المجتمع ـ اذ انها مآسي يمكن معالجتها . ولاننا في معالجتها نخلق الحضارة والتقدم . بل ان التقدم قد يخفف من بلوى المأساة الاصلية وقد يتغلب عليها . وقد قلت ذلك في **اولاد حارتنا** . قلت ان معالجة الشرور الاجتماعية بالاشتراكية يفرغ الانسان لمعالجة مأساته الاولى وهي الموت ، فاذا انقلب اهل الحارة ـ حارة الجبلاوي ـ بفضل توزيع الوقف بالمساواة والعدل والانسانية اتيحت لهم الفرصة ليكونوا جميعا سحرة (علماء) (٢) وليمكفوا على حل مشكلة الموت .

واذا فحل مأساة المجتمع قد يحل في النهاية مأساة الوجود ، او يخففها ، وهي على اي حال تعطي للحياة معنى يستحق ان تعيش من اجله . اما التركيز على مأساة الوجود مع تجاهل مآسي المجتمع فلن يحل مأساة الوجود ، من جهة ، ويحول العالم الى عبث ، وبكاء او ضحك كالبكاء .

غير اني لم اغفل ابدا مأساة الوجود ، ولعلي ازداد لها انتباها (٣)».

تعتبر السكرية ـ خاتمة ثلاثية نجيب محفوظ ـ نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة حملت بين طياتها البذرة التي انبتت معظم ميزات المرحلة الجديدة . ولعل توقف نجيب محفوظ عن التأليف القصصي لمدة ست سنوات تقريبا بعد انتهائه من كتابة السكرية عام ١٩٥٢ يصح دليلا على انتهاء مرحلة وابتداء اخرى . ولعل ثورة ١٩٥٢ كان لها دور هام في صمت محفوظ هذا . فقد كانت امامه سبعة موضوعات لروايات جديدة في الاتجاه نفسه ، « واذا بثورة ١٩٥٢ تقوم فتموت معها الموضوعات السبعة » . (٤)

ويبدو لي ان صمت محفوظ كان نابعا من ايمانه بأن « الادب ثورة على الواقع لا تصوير له » . (٥) لذلك ، حين مات عهد ما قبل الثورة انتفى ، بالنسبة لمحفوظ ، اي مبرر للحديث عن ذلك العهد . ولم يستطع ان يقول شيئا عن عهد وليد لم تتحدد شخصيته بعد ، فصمت . ولم يعد الى الكتابة الا حين احس بوجوب الثورة على الواقع الجديد الذي لم يحقق للانسان عالم اليوتوبيا الذي يتوق اليه ويسمى بالفن لبنائه . وقد اكد محفوظ نفسه ذلك في قوله : « وانا اعتقد انه لو بلغت الحياة الكمال لما كان للفن من معنى أو وجود » . (٦) من هنا كان صمت محفوظ املا وانتظارا وشوقا الى تحقيق ما لا يتحقق في عالم الكون والفساد ، وكانت عودته الى الكتابة سعيا لخلق عالم المثل الذي

---

(١) نجيب محفوظ ، السكرية (القاهرة ، لا . ت) ، ص: ٣١٠ .

(٢) التفسير الخاص للمؤلف . هكذا وردت في النص .

(٣) غالي شكري ، « مقابلة مع نجيب محفوظ » ، مجلة حوار ، العدد ٣ (آذار ١٩٦٣) ، ص : ٧٣ ـ ٧٤ .

(٤) نجيب محفوظ ، « حديث » ، مجلة الكاتب ، العدد ٢٢ (يناير ١٩٦٣) ، ص : ١٧ .

(٥) نجيب محفوظ ، « حديث » ، مجلة الهلال ، (فبراير ١٩٧٠)، ص : ٤٢ .

(٦) احمد محمد عطية ، « حديث مع نجيب محفوظ » ، مجلة الاداب ، العدد ١ (كانون الثاني ١٩٧٠) ، ص : ٢٨ .

عجز الواقع عن احتوائه . وليس عالم اليوتوبيا الذي يسعى الفنان لتحقيقه مناقضا للواقع او بعيدا عنه ، لان « اليوتوبيا الحديثة تضرب على وتر جديد ، هو وتر الحقيقة ، وتر الحياة اليومية التي نسعى عبثا للهرب منها ... وهي (اي اليوتوبيا الحديثة) ، قبل كل شيء ، تقرير وانتقاد » . (٧)

ولعل الاتجاه الميتافيزيقي الذي طبع نتاج المرحلة الجديدة، وظهرت بذوره الاولى قبيل الثورة ، تخمر في فترة الصمت هذه ، وبرز بشكل واضح في نتاج المرحلة الاخيرة حين حاولت الثورة المصرية ان تحل القضايا الاجتماعية ، فاستطاع محفوظ الانطلاق ماورائيا ، وان ظلت القضايا الاجتماعية همه الاكبر . وبذلك اتحد الواقع بما وراء الواقع في هذه المرحلة وظهرت الاسطورة وسيلة للتعبير عن هذا الالتحام . وكان الرمز ، وهو البناء الحسي المطلق ، اداة للتعبير عن رؤيا محفوظ في هذه المرحلة . فعادت اولاد حارتنا ، العمل القصصي الاول لنجيب محفوظ بعد فترة الصمت هذه ، الى الاسطورة ، وهي ذروة البناء الرمزي ، واتخذت منها سبيلا الى احتواء تجربة محفوظ الاجتماعية الماورائية .

ما هي رؤيا نجيب محفوظ الجديدة بعد سنوات الصمت ؟ وكيف عبر عنها ؟

يؤكد نجيب محفوظ في نهاية السكرية قضايا ثلاثا اصبحت فيما بعد محورا ترتكز اليه قصصه في المرحلة التالية وهي : الثورة الابدية ، والتصوف ، والايمان بالعلم . فكيف جمع محفوظ هذه المبادىء الثلاثة التي تبدو متناقضة عرضا ؟ يقول كمال عبد الجواد في نهاية السكرية : « غير انه من المستحسن دائما ان يتامل الانسان ما يراود نفسه من احلام ، على ذلك فالتصوف هروب ، كما ان الايمان السلبي بالعلم هروب ، واذن فلا بد من عمل ولا بد للعمل من ايمان ، والمسالة هي كيف نخلق لانفسنا ايمانا جديرا بالحياة » . (٨) ويقول كمال في موضع آخر : « وقد تسال ما الحق وما الباطل ، ولكن لعل الشك نوع من الهروب كالتصوف والايمان السلبي بالعلم . فهل تستطيع ان تكون مدرسا مثاليا وزوجا مثاليا وثائرا ابديا ؟! » (٩) هنا يزول التناقض العرضي ، ويبرز الانسجام الداخلي بين الايمان بالعلم والدعوة الى التصوف ، اذ ان الايمان السلبي بالعلم يعادل الايمان السلبي بالله ، وتكون رؤيا محفوظ دعوة الى صوفية جديدة هي الايمان بالعمل المعادل للايمان بالثورة الابدية : « اما الواجب الانساني العام فهو الثورة الابدية ، وما ذلك الا العمل الدائب على تحقيق ارادة الحياة ممثلة في تطورها نحو المثل الاعلى ... » (١٠)

كانت هذه القضايا التي اصطرعت في نفس كمال عبدالجواد هي قضية محفوظ الذي قال ان « كمال يعكس ازمتي الفكرية ، وكانت ازمة جيل فيما اعتقد ، والا فما اكدت عليها بالقوة التي ظهرت بها » . (١١) ولعل هذا القول صحيح الى درجة كبيرة . فقد شغل مفكرو النهضة ، الى حد كبير ، بقضية التوفيق بين الدين والعلم ، كما بحثوا طويلا عن الخط السياسي الذي يستطيع ان ينهض بالامة العربية بعد قرون الجهل والتخلف . وكان محمد عبده من ابرز من تصدى لهذه القضية ، وحاول ان يوفق بين العلم الحديث وتعاليم الدين الاسلامي . لكن تعاليم محمد عبده لم تكن محددة الملامح ، الامر الذي سمح بنشوء تيارين متناقضين ادعى كل منهما ارتباطه بمحمد عبده : نادى التيار الاول باخضاع العلم الحديث لتعاليم الدين الاسلامي وكان رشيد رضا وفريد وجدي من ابرز دعاته ، ودعا التيار الثاني الى اخضاع الدين لمبادىء العلم الحديث وكان كل من علي عبد الرزاق وقاسم امين وطه حسين من ابرز الداعين اليه . ولعل خالد محمد خالد الذي كتب اشهر مؤلفاته قبيل ثورة ١٩٥٢ لم يخرج كثيرا عن هذا الخط الثاني حين طالب بالاصلاح الديني سبيلا الى اسعاد الشعب ، ورفض الكهانة التي حملها « وزر تاخر الشعب وجهله » (١٢) في كتابه من هنا .. نبدا الامر الذي دعا الازهر الى مطالبه بمصادرة الكتاب ومحاكمة المؤلف لما في هذا القول من تهجم صريح على الازهر . ولكن خالد محمد خالد ظل يكتب من داخل الايمان الديني ، ولم يدع الى استبدال الدين بالعقل الذي لم يجد بينه وبين التعاليم الدينيه من تعارض . فهو يقول مثلا في كتابه « هذا..او الطوفان »:« ونحن اليوم نرث مجتمعا اختلطصداه بالدين فعكر بهاءه ، امسى الدين فينا بضاعة مزجاة ، نصفه حق ، ونصفه باطل والكاذيب . فماذا نفعل ؟؟ انعزل الدين عنا ونلقي به خارج الاسوار ..؟ ان مجرد التفكير في هذا لجحافة جليلة ..» (١٣) ويبين من ذلك ان هذه القضية ظلت شغل المفكرين المصريين حتى اوائل الخمسينات وظل الفكر المصري حتى تلك الفترة يدور في الحلقة نفسها وهي التوفيق بين العلم الحديث والدين الاسلامي وان اختلفت النظرة الى اي الاتجاهين اكثر اهمية من الآخر .

وقد شغلت هذه القضية الفكرية نجيب محفوظ في تلك الفترة ، وكان صمته الطويل الذي تلا السكرية كان مرحلة مخاض عسير عانى فيها القضية فكريا ونفسيا . ولم يباشر كتابه « اولاد حارتنا » (١٤) حتى وصل الى رؤيا جديدة ازاحت آلام الصراع والشك واحلت في نفسه يقينا وايمانا جديدا يواجه به مأساة الحياة . ولعل نجيب محفوظ الفنان استطاع من خلال الرؤيا ـ التي تتخطى الادراك الفكري ـ ان يصل الى ما لم يصل اليه المفكرون بالاعمال العقلي والمنطق . وقد وعى نجيب محفوظ اهمية الفن الذي يعطي الحياة للفكرة الفلسفية حين قال : « اما الاديب المتفلسف فهو الذي يعبر تعبيرا فنيا عما يأخذه من هذه الفلسفة . وهو يفيد الفلسفة بذلك ، لانه يحولها الى تجربة حية تعيش في النفس البشرية بعد ان كانت معادلة عقلية يختص بها الفلاسفة وتابعوهم » . (١٥) .

كانت رؤيا نجيب محفوظ في اولاد حارتنا اعادة اكتشاف لتاريخ البشرية . فاقتطف من التاريخ الانساني ذرى خمسا عدها منعطفات مميزة . وكانت حارة الجبلاوي خيطا يجمع هذه القصص الخمس التي تدور وقائعها في تلك الحارة . وتمثل الحارة الدنيا باسرها ، ويرمز الجبلاوي ـ الجد الاكبر ـ الى الخالق .

تبدأ اولاد حارتنا والانسان لم يزل في الجنه بعد ، حين يدعو الجبلاوي ابناءه ويسمي ادهم ابن الجارية ، مديرا للوقف ، بديل ان يقع اختياره على اخيه الاكبر ادريس ابن السيدة الشريفة . ويعصى ادريس امر ابيه ويتحدى قراره ، فيكون مصيره الطرد من البيت الكبير. ويتسلم ادهم الوقف ويتزوج اميمة . وتمر الايام هنيئة الى ان يأتي

---

(٧) Lewis Mumford, The Story of Utopias, (New York , 1922) , P . 189

(٨) السكرية ، ص : ٣١٤ .
(٩) م. ن. ، ص : ٣١٨ .
(١٠) م. ن. ، ص : ٣١٥ .
(١١) مجلة حوار ، ص : ٦٧ .

(١٢) خالد محمد خالد ، من هنا .. نبدأ ، الطبعة الثامنة (القاهرة ، ١٩٥٤) ، ص : ٤٩ .

(١٣) خالد محمد خالد ، هذا .. او الطوفان ، الطبعة الثالثة (القاهرة ، لا . ت .) ، ص : ١٥٥ .

(١٤) نشرت مسلسلة في صحيفة الاهرام عام ١٩٥٩ . لكن الازهر منع نشرها في كتاب بعد ان فطن شيوخه الى معانيها واعتبروا انها تمس بالاديان السماوية ، فنشرها محفوظ في « دار الآداب » في بيروت.

(١٥) مجلة حوار ، ص : ٧١ .

ادريس يوما ويطلب من ادهم ان ينظر في حجة الوقف نصيب كل من ابناء الجبلاوي من الميراث . وكان الجبلاوي قد حذر ابناءه من الاطلاع على الحجة .ويذهب ادهم بايعاز من ادريس وتشجيع من اميمة الى غرفة ابيه لينظر في الحجة . وفيما هو يهم بفتح الكتاب الكبير يدخل الجبلاوي ويطرد ادهم وزوجه من البيت الكبير . فتكتمل مأساة سقوط الانسان كما عاناها كل من آدم وحواء في الجنة حين وسوس لهما ابليس بتذوق التفاحة المحرمة التي حملتها شجرة المعرفة . فكان التوق الى المعرفة سبب سقوط الانسان الاول . وتبدأ مأساة الانسان، وتكرر سلسلة آلامه ، ويباشر صراعه مع الشر ممثلا في ادريس . وتنجب اميمة توأمين : قدري وهمام . فتكون طبيعة الاول قريبة من طبيعة عمه ادريس ، وطبيعة الثاني قريبة من طبيعة جده الجبلاوي الذي يقرر اعادته الى البيت الكبير . فتثور الغيرة في قلب قدري ويقتل اخاه : فتتم مأساة قتل قابيل لاخيه هابيل . ويفقد الانسان امله الاخير بالعودة الى فردوسه المفقود ، ويقضي على نفسه بالنفي الابدي من جنة الخلد .

ويعيش الانسان في كل لحظة مأساة سقوطه . ويسعى في حياته الجديدة الى بناء فردوسه المفقود بتحقيق السعادة التي كان ينعم بها في الجنة . لكن ، كيف سارت الحياة خارج اسوار البيت الكبير ؟ وكيف سعى الانسان الى ما كان يحلم به من سعادة ؟ « ولم يجد الناس بدا من ممارسة احقر الاعمال . وتكاثف عددهم فزاد فقرهم وغرقوا في البؤس والقذارة وعمد الاقوياء الى الارهاب والضعفاء الى التسول ، والجميع الى المخدرات . كان الواحد يكد ويكدح نظير لقمات يشاركه فيها فتوة ، لا بالشكر ، ولكن بالصفع والسب واللعن . الفتوة وحده يعيش في بحبوحة ورفاهية ، وفوق هذا الفتوة الاكبر ، والناظر فوق الجميع ، اما الاهالي فتحت الاقدام » . (١٦) وينادي اهل الحارة جدهم الجبلاوي . لكنه معتكف في البيت الكبير ، لا يلتفت الى آلام ابنائه . ويؤلمهم صمته ، وتعذبهم لا مبالاته ، فيفكرون احيانا به ، فيقول جواد مثلا : « لنفعل مثله ، فانه لا يشغل بنا نفسه » (ص ٢٣١) ويقول عويس : « اين هو جدنا ؟ فليخرج الى الحارة ولو محمولا على اعناق خدمه ثم ليحقق شروط وقفه كما يشاء ، (ص ٣٦٠) ويقول زكريا : « وهل هو اذا وثب الفتوات لذبحنا سيحرك ساكنا او يكترث لما يصيبنا ؟ (ص ٣٦٠)

ومع ذلك فاهل الحارة ينتظرون معجزة ويلتفتون الى الجبلاوي لتحقيقها . ويرون في الانبياء طريقا الى تحقيق السعادة وخلاصا من الظلم الاجتماعي الرابض فوق صدورهم . ويأتي جبل (النبي موسى) ويحارب الظلم بالقوة وينتصر عليه الى حين : « وابيضت الايام التالية بافراح آل حمدان او ال جبل كما باتوا يدعون » (ص ٢٠١) « وترامى الطبل والغناء من بيوت حمدان ، واشرقت انوار الافراح في حيهم » (ص ٢٠٢) لكن هذه السعادة لم تكن سوى حلم قصير ، اذ ارتدت امور الحارة الى اسوأ مما كانت عليه . وجاء رفاعة (المسيح) مبشرا بالمحبة وسيلة لتحقيق « السعادة الحقيقية » ، (ص ٢٦٠) فقال : « لا غاية لي الا سعادة اهل حارتنا » (ص ٢٨١) ويعيش اهل الحارة حلما سعيدا لا يلبث ان يزول وتعود الامور اسوأ مما كانت عليه . ويجيء قاسم (النبي محمد) فيسعى الى « طريق السعادة الصافية » (ص ٣٤٤) ويجمع بين رسالتي جبل ورفاعة حين يدعو الى « القوة عند الضرورة والحب في جميع الاحوال » . (ص ٣٦٤) ويعي قاسم ان اولاد الحارة « يحلمون بالسعادة عبثا ثم سرعان ما تلقي الايام بأحلامهم مع النفايات في اكوام الزبالة » (ص ٣٤٥) وهكذا لا يلبث الحلم السعيد الذي حققه قاسم ان يزول ويعود الظلم يعبث بمصير ابناء الحارة .

---

(١٦) نجيب محفوظ ، اولاد حارتنا ، الطبعة الثانية ، (بيروت ١٩٧٢) ص : ١١٧ .

وانتهى عهد النبوات التي اخفقت جميعا في تحقيق فردوس الانسان المفقود على الارض . وقال اهل الحارة « المكتوب مكتوب ، لا جبل اجدى ولا رفاعة ولا قاسم ، حظنا من الدنيا الذباب ومن الآخرة التراب » (ص ٤٤٨ ــ ٤٤٩) و « لم يعد جبل ورفاعة وقاسم الا اسماء، واغاني ينشدها شعراء المقاهي المسطولون » (ص ٤٤٨) وحاول الانسان ان يبحث عن طريق جديد لتحقيق السعادة فكان عرفة ، وهو العلم ، نبوءة العصر الحديث ، وجاء بقوة « لم يحز عشرها جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين » (ص ٤٧١) ويقف عرفة متحديا الجبلاوي فيقول : « انا عندي ما ليس عند احد ، ولا الجبلاوي نفسه ، عندي السحر ، وهو يستطيع ان يحقق ما عجز عنه جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين » (ص ٤٩٨) ويقول عرفة لزوجه عواطف « بضجر » حين تحدثه عن الجبلاوي: « جدنا الواقف ! كل مقلوب على امره يصيح كما صاح المرحوم ابوك : « يا جبلاوي » ! ولكن هل سمعت عن احفاد مثلنا لا يرون جدهم وهم يعيشون حول بيته المغلق ؟ وهل سمعت عن واقف يعبث العابثون بوقفه على هذا النحو وهو لا يحرك ساكنا ؟ » (ص ٤٨٢ ــ ٤٨٣) .

لكن عرفة كان في المرحلة الاولى من عمله لا يزال يفكر في الجبلاوي. ويتجرأ على اقتحام البيت الكبير ليطلع على الكتاب الذي طرد ادهم بسببه ، لانه يعتقد انه « كتاب سحر واعمال الجبلاوي في الخلاء لا يفسرها الا السحر » (ص ٤٨٦) ويذهب عرفة الى البيت الكبير ويقتل خادم الجبلاوي فيموت الجد الاكبر حزنا عليه . ويعود عرفة من رحلته خائبا ، ويندم لانه اقدم عليها ، ويقول : « لكنها علمتني انه لا ينبغي ان نعتمد على شيء سوى السحر الذي بين ايدينا ! الا ترى انني غامرت برحلة جنونية جريا وراء فكرة ربما كانت ابعد ما يكون عن ظني ؟! (ص ٤٩٧) .

يؤكد نجيب محفوظ هنا عدم امكان التوفيق بين العلم والدين ، لانهما على طرفي نقيض . ويرى انه يتحتم على كل منهما ان يعمل في مجاله الخاص ، فلا يلغي احدهما وجود الاخر ، لان الانسان في حاجة الى العلم المادي كما انه في حاجة الى روحانية تنطوي على الايمان بقوة عليا يسميها الله ، وان اختلف في تعريفه لهذه القوة عن النبوءات الثلاث . لذلك يندم عرفة لموت الجبلاوي ويحلم باعادة الحياة اليه . ويصور له لاوعيه خادم الجبلاوي تطمئنه ان الجد الاكبر مات وهو راض عنه . وللسبب نفسه يتزوج عرفة من عواطف وهي تمثل ، كما يدل اسمها ، عاطفة الانسان وطاقته الروحانية . وحين يتخلى عن زوجه يصبح عبدا للناظر الكبير ، وعندما يثور على عبوديته يعود اليها ويقرر استخدام علمه لتحقيق سعادة البشرية ، واعادة فردوسها المفقود . ويموت عرفة شهيدا لدعواه كما مات الانبياء . ويحاول الناظر ان يخدر الناس بالحديث عن الجبلاوي الذي قتله عرفة . لكن الناس بلغوا مرحلة جديدة من الوعي :« ومن عجب ان تلقى الناس اكاذيب الرباب بفتور وسخرية ، وبلغ بهم العناد ان قالوا : لا شان لنا بالماضي، ولا امل لنا الا في سحر عرفة،ولو خيرنا بين الجبلاوي والسحر لاخترنا السحر » . (ص ٥٥١) .

هذه هي رؤيا نجيب محفوظ الجديدة : الايمان بالعلم طريقا الى تحقيق سعادة الانسان وبناء فردوسه المفقود بعد ان كانت النبوءات الدينية ايهاما بالسعادة لا تحقيقا لها . ولا يرفض محفوظ الايمان الديني بل يؤكد خطأ الفكر الذي حاول منذ مطلع ما يسمى بعصر النهضة ان يوفق بين العلم والدين . ويدعو محفوظ الى فصل العلم عن الدين لان كلا منهما يعمل في مجاله الخاص . لكنه يدعو الى الاخذ بالعلم واهمال الدين اذا اضطر الانسان الى الاختيار بينهما . ولا يدعو محفوظ الانسان للتخلي عن انسانيته ، فيوحد بين العلم والعاطفة ، حتى لا يغدو وسيلة للشر : فيستذل الانسان ويحوله عبدا لمطامع الحكام الظالمين بديل ان يكون وسيلة تحقيق سعادة انسانية .

ما هي السعادة الانسانية كما يراها نجيب محفوظ ؟ تتمثل السعادة في التوزيع العادل لريع الوقف حتى لا تزداد اقلية غنية غنى وتزداد الاكثرية المعدمة فقرا ، فتستبد الاقلية وتذيق الجماهير الفقيرة الذل والهوان . فالحل هو الاشتراكية او الثورة الابدية كما سماها محفوظ في السكرية . تبدأ قصة البشرية حين سمى الجبلاوي ادهم مسؤولا عن الوقف . ويظل الوقف وتوزيع الريع الذي يدره قضية الانسان الاولى . فيذهب جبل الى الناظر ويقول له : « جئت مطالبا بحقوق آل حمدان في الوقف وفي الحياة الآمنة ! » (ص ١٨٥) وعندما يسترد جبل حقوق بني حمدان في الوقف ويقوم بتوزيعها بالتساوي يعترض دعبس ، فيرد جبل معارضا : « تريد ان تجعل من الاسرة الواحدة سادة وخدما ! » (ص ٢٠٥) وياخذ هو ، سيد القوم ، الحصة نفسها التي اخذها كل من افراد العشيرة . ويتنبه رفاعة للظلم الاجتماعي مع انه لا يهتم للوقف ، ويقول عندما تحدثه امه عن الرفاهية التي يعيش فيها الفتوة خنفس : « كل هذا الخير من اموال آل جبل المغتصبة » (ص ٢٣٥) ويعمل رفاعة على مساعدة الجماهير الفقيرة : « لولاي ما وجد الفقراء من يشفيهم ، انهم يقدرون الشفاء لكنهم لا يملكون ثمنه ، وانا ما عرفت الاصدقاء حتى عرفتهم » (ص ٢٦٧) وياتي قاسم ليعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية وليأخذ نصيب قومه من الوقف ويوزعه بالتساوي على الفقراء . وعندما يلومه معلمه يحيى على الاهتمام بالوقف يقول : « بلى يا معلم ، بالوقف وبالقضاء على الفتونة ، هناك تتحقق الكرامة التي اهداها جبل الى حيه ، والحب الذي دعا اليه رفاعة ، بل والسعادة التي حلم بها ادهم » (ص ٣٦٤) ولا يختلف الهدف الذي يسعى اليه عرفة عن هدف الانبياء الاولين وان اختلفت اساليبه . فهو يستخدم العلم كي « يتمكن يوما من القضاء على الفتوات انفسهم . وتشييد المباني ، وتوفير الرزق لكافة اولاد حارتنا » . (ص ٤٨٣) .

من هنا يتاكد ان اولاد حارتنا تعالج قضية اجتماعية في جوهرها وان اتخذت ابعادا ميتافيزيقية . ويربط محفوظ في اولاد حارتنا ربطا وثيقا بين القضية الاجتماعية والقضية الميتافيزيقية مع انه يغلب الاولى على الثانية من حيث الاهمية ، فيعد التطلع الميتافيزيقي سببا من اسباب التخلف الاجتماعي . يقول حجازي مثلا مخاطبا ابناء الحارة : « عيبكم انكم تخافون الموت اكثر مما ينبغي ، لذلك سيطر عليكم حنش ، وتسلطن بيومي ، وصادر ايهاب ارزاقكم » (ص ٢٤٣). ويدور في خلد عرفة وهو مسوق الى حتفه : « فليس ثمة الا الظلام وليس وراء الظلام الا الموت . وخوفا من هذا الموت انطوى تحت جناح الناظر فخسر كل شيء وجاء الموت . الموت الذي يقتل الحياة بالخوف قبل ان يجيء . لو رد الى الحياة لصاح بكل رجل لا تخف . الخوف لا يمنع من الموت لكنه يمنع من الحياة . ولستم يا اهل حارتنا احياء ولن تناح لكم الحياة ما دمتم تخافون الموت » (ص ٥٤٦) لكن اولاد الحارة ، وهم غارقون في مأساتهم الاجتماعية ، لا يفكرون بالمأساة الوجودية : فهم لا يخافون الموت ، وقد يبلغ بهم الياس والالم مبلغا يتمنون الموت فيه بما هو حل للظلم الاجتماعي ، فتصرخ ام نبوية بياعة النابت بأعلى صوتها : « قطعت العيشة ويا بخت من كان الموت نصيبه » . (ص ٥١٧) . من هنا كان الناظر قدري اكثر ابناء الحارة اهتماما بالقضايا الميتافيزيقية لانه لا يعاني ظلما اجتماعيا ، لذلك يلتفت غيبيا : « ... الموت ... الموت . دائما الموت يجيء في اية لحظة ، ولاتفه الاسباب او بلا سبب على الاطلاق ... كلنا اموات وابناء اموات » (ص ٥٢٣) اما عرفة فيغلب اهمية القضية الاجتماعية ، بل ويعد الظلم الاجتماعي سبب المأساة الوجودية فيقول: « الموت يكثر حيث يكثر الفقر والتعاسة وسوء الحال ... واذا حسنت احوال الناس قل شره ، فازدادت الحياة قيمة وشعر كل سعيد بضرورة مكافحته حرصا على الحياة السعيدة المتاحة ... سيجمع الناس السحرة ليتوفروا لمقاومة الموت ، بل سيعمل بالسحر كل قادر ، هنالك يهدد الموت الموت » (ص ٥٣٤ ـ ٥٣٥) وبذلك يؤكد محفوظ ان العلم حين يحل القضية الاجتماعية ، يخف من حدة ماساة وجود الانسان ، وقد يصل العلم الى حل ماساة الانسان الوجودية الاولى : الموت .

عرف كروتشي الفن بانه حدس وتعبير . ونفى بشدة امكان الفصل بينهما ، فرفض الاعتراف بوجود رؤيا لا يمكن التعبير عنها . وقال انه حين يخفق الفنان في التعبير تكون رؤياه مشوشة او غير مكتملة .

استنادا الى ما قاله كروتشي نطرح السؤال : كيف عبر نجيب محفوظ عن رؤياه في اولاد حارتنا ؟ اعتمد محفوظ في هذه القصة الشكل الاليجوري ، وهو ما يدعى بالتشخيص او المماثلة . و « الاليجوري توحي ضمنا بالاستقلال الظاهري للاشياء او الاشخاص في قصة او صورة ، حين تكون ، في الحقيقة ، معتمدة في وجودها على افكار عامة ، ومبادىء اخلاقية ، او بعض الخصائص ، التي توضع معادلة لها . فالاليجوري تنطوي على المعادلة لا على المقارنة»(١٧) من هنا تختص الاليجوري بسيطرة الفكرة على الحركة والصورة ، الامر الذي يفرض التحكم بالطريقة التي يتوجب على القارىء ان ينظر بها الى عمل فني ما . (١٨) فيصبح العمل الفني محدودا ، ويفقد الفني الناتج عن تعدد الاحتمالات التي يتميز به العمل الرمزي . انطلاقا من هذه الحقيقة يحط كولريدج من قيمة الاليجوري الفنية حين يصفها « بالمحاكاة الجوفاء التي يربطها التوهم كيفيا باشباح الاشياء » . (١٩) ويفرق كولريدج بين التاليف الآلي الصادر عن التوهم ويربطه بالاليجوري والتاليف العضوي الصادر عن الخيال ويربطه بالرمز . وتميل الاليجوري الى التجريد ، بينما يعمل الفن العظيم على تجسيد الحقائق الكلية المجردة ، ليخلق الصورة الكلية العينية التي عدها هيجل تعريفا للرمز : وهو ذروة الابداع الفني كما يقول النقاد الادبيون . كذلك قال يونغ انه « كلما كان الرمز قديما واكثر عمقا ، وبالتالي فسيولوجيا ، وكان جماعيا وكليا ، كان اكثر « تجسيدا » . وكلما كان مجردا ومميزا ومحددا ، وكانت طبيعته قريبة من الوعي والفردية ، سلخ عن نفسه طبيعته الكلية . حتى اذا بلغ اخيرا الوعي التام ، تعرض لخطر التحول الى مجرد شكل اليجوري لا يمكن ان يتخطى حدود الادراك الواعي ، ويتعرض الى محاولات التفسير المنطقي غير الوافي » . (٢٠) من هنا يقصر الشكل الاليجوري عن بلوغ الرمز ، وان سمى الاشياء بغير اسمائها ، ويقصر عن بلوغ البناء الاسطوري وان حاكى اساطير الاولين . وقد لاحظ فلتشر العلاقة التي تجمع بين الاليجوري والاسطورة حين قال « ان

---

(١٧)
Robert Skelton, The Poetic Pattern (Lodon, 1957) P. 93.

(١٨)
Angus Fletcher, Allegory, The Theory of a Symbolic Mod (New York, 1965) P. 304.

(١٩)
M.H. Abrams , The Mirror and the Lamp : Romantic Theory and the Critical Tradition, (New York, 1958), P. 295.

(٢٠)
C.G. Jung , The Archetypes of the Collective Unconscions , The Collected works of C.G. Jung , Volume 9 , Port I . tr . R . F . G . Hull (New York , 1969) ,P. 173

الاسطورة والاليجوري هما مرتبتان مختلفتان من عملية رواية نموذج اصلي واحد . فالاسطورة ، كما يبدو لي ، تنعلق عامة بالحلم ، والاليجوري بالمنطق والتفكير » .(٢١) لذلك كان الفرق شاسعا بين البناء الاسطوري والبناء الاليجوري . فالاول يكتشف الوجود والحقيقة الانسانية بالعودة الى النماذج الاصلية المغروسة في اللاوعي الجماعي وتجسيدها في صور لا يمكن ان « تفسر » لانها لا « تعني » بل « تكون » . بينما تحاكي الاليجوري الاساطير بتفكير عقلي يبحث عن معادل لكل صورة ، فتحكم بذلك على نفسها بالتجريد والمحدودية .

من هنا عانى الشكل الفني لاولاد حارتنا معاناة كبيرة بالتزام نجيب محفوظ بالشكل الاليجوري . فهو وان عاد الى القصص الاسطوري لم يستطع ان يخلق البناء الاسطوري الذي يولد الشخصية ـ الرمز والحدث ـ الرمز ، بل حاكى الرموز الاسطورية فجاءت شخصياته صورا فوتوغرافية تحمل سمات الشخصية الاسطورية لكنها جامدة تفتقد الى الحياة . فلم تكن شخصيات اولاد حارتنا حية نامية بل كانت انماطا ثابتة تتحرك كي تثبت الفكرة التي تمثلها . من هنا ، « فلو كنا نقابل شخصا اليجوريا في الحياة اليومية ، لقلنا ان فكرة واحدة تستحوذ عليه ، او ان عقله محدود الى ابعد مدى ، او ان حياته مكيفة وفق نموذج صارم من العادات لا يسمح لنفسه بالانحياز عنه » . (٢٢) لذا لا تعاني الشخصية في القصة الاليجورية صراعا داخليا : كالصراع بين العقل والعاطفة ، او بين رغبات النفس واحكام المجتمع ، او بين الخير والشر . فتكون شخصيات لا انسانية ، وتفتد دمى تحركها فكرة كانت هذه الشخصيات تشخيصا لها . فجبل هو النبي موسى الذي جاء بالقوة سبيلا الى تحقيق العدالة . لذلك لا يضعف جبل في اولاد حارتنا بل يعمل محفوظ على ابراز قوته فيختار القصص الديني الذي يبرز قوة موسى ويهمل القصص الذي يبرز ضعفه الانساني ، الامر الذي لم يغفله القصص الديني. فموسى الاسطورة كما صورته التوراة ، مثلا ، انسان وليس فكرة ، لانه يعاني الضعف الانساني ويعصى الله حين يطلب منه ان يكلم قومه متعللا بضعف تعبيره وعدم مقدرته على مواجهة القوم ، ويعترف بضعفه وعجزه . من هنا كان موسى الاسطورة رمزا وانسانا وكان جبل اولاد حارتنا فكرة ودمية . ويصح ذلك على رفاعة ، النبي الوديع الذي جاء بالحب طريقا الى تحقيق العدالة . فكانت شخصية رفاعة مائعة لا تترك اثرا في النفس . بينما كانت شخصية المسيح الاسطورية ، كما ظهرت في الانجيل ، اروع رمز للصراع بين الالوهة والتانس . فقد كان المسيح يعاني ضعفا انسانيا رهيبا حين طلب من الله ان يرفع عنه كأس العذاب والموت . ولم يكن وديعا حين طرد الفريسيين من الهيكل بالسوط ، وحين لعن اليهود ووصفهم باولاد الافاعي . كذلك كانت شخصيات اولاد حارتنا جميعا تفتقد الحيوية الانسانية وتعاني برود الفكرة المجردة .

واساء البناء الاليجوري الى الحدث القصصي في اولاد حارتنا. فقد اضطر محفوظ الى حشو احداث ليست من صلب البناء القصصي استمدها الكاتب من القصص الديني ليؤكد ان جبل هو النبي موسى مثلا او قاسم هو النبي محمد . من هنا لم ينم موضوع معين عبر احداث تساعد جميعا على التطور به الى هدف محدد يسعى اليه المؤلف ، بل جاء قسم كبير من الاحداث ليربط بين الشخصية التاريخية والشخصية القصصية . بينما « يسعى كاتب الاليجوري المجيد الى اهمال الاحداث العرضية من روايته ، ليصل الى تكثيف رمزي اكبر ، وليؤكد مطابقة الحدث او الشخصية لدورها في القصة . لكن الحيلة اذا اكتشفت تبدو المطابقة كيفية ، ولا تعود القصة مقنعة » . (٢٣) من هنا جاء جزء كبير من اولاد حارتنا غير مقنع نفسيا ، لان الاحداث غير مترابطة ولا تنمو نماء طبيعيا داخليا ، وتشكل مجموعة احداث لا يربط بينها سوى عودتها الى قصة اسطورية معينة ، او سعيها الى تاكيد فكرة ما .

ولا يبرر محفوظ سرد احداث معينة فتفقد قيمتها وعلة وجودها، وتخسر القصة انسجامها الداخلي وبالتالي الاقناع النفسي الذي ينتظره القارىء . فنجيب محفوظ يجعل جبلا ابنا للناظر بالتبني مع انه من بني حمدان دون سبب مقنع سوى ان موسى كان ابنا بالتبني لابنة فرعون في الاسطورة . لكن ام موسى وضعت طفلها في سلة قرب نهر النيل وانتظرت ابنة فرعون حتى تاخذه ، لان فرعون قرر قتل اطفال اليهود من الذكور ، الامر الذي يكسب الحادثة معنى . اما الحدث نفسه في اولاد حارتنا فانه مجرد محاكاة فارغة للفروع دون الجذور فكانت النبتة مجرد شكل لا حياة فيه . كذلك وضع محفوظ حادثة الخلاف الذي وقع بين عتريس وكعبلها فخلى الاول يفقأ عين الثاني كي يفسح المجال لجبل ان يقول : « عين بعين والبادىء اظلم » (ص ٢٠٨) وهذا مبدأ قال به موسى واراد محفوظ ان يثبته في القصة فافتعل هذه الحادثة . وافتعل مشهدا من اللهو والسكر ليتيح لقاسم ان يقول : « الله يلعن الخمرة وزمانها ! ... تجنبوا الظهور بين الناس وانتم سكارى » (ص ٣٧١) ليؤكد المطابقة بينه وبين محمد الذي حرم الخمرة في الدين الاسلامي . وتضم اولاد حارتنا عددا كبيرا من الاحداث المفتعلة التي لا ترتبط عضويا بالبناء القصصي .

يتبين مما تقدم ان نجيب محفوظ كان صاحب رؤيا جديدة في هذه المرحلة من حياته الادبية لكنه اخفق في التعبير عنها . فلعلنا نستطيع ان نستنتج ان هذه الرؤيا لم تكن قد اتضحت وتبلورت بالنسبة اليه ، فجاء تعبيره مشوشا لم ينضج بعد . وفي رايي ان هذا الامر طبيعي : فاولاد حارتنا هي التعبير الفني الاول عن الرؤيا الجديدة بعد سنوات الصمت . ومن العسير ان يحدس الفنان رؤياه كاملة مشرقة منذ البداية . لكن محفوظ استطاع ان يقبض على الرؤيا كاملة في قصصه التي تلت اولاد حارتنا فطور تعبيره وبلغ ذرى رمزية رائعة وبناء اسطوريا متكاملا فتخطى مرحلة الكد الذهني والمماثلة التي عانى منها في اولاد حارتنا حين لم يستطع ان يرى من الرؤيا سوى ظلالها .

بيروت

---

(٢١) Flether, foot note, PP. 355 - 356.

(٢٢) Ibid , P . 40 .

(٢٣) Edwin Honig, Dark Conceit, the Making of Allegory . (New York , 1966) P . 126 .

مكتبة انطوان

(فرع شارع الامير بشير)

تقدم للطلاب
جميع الكتب المدرسية
العربية والفرنسية